بلاد الجزيرة

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب

فرزة من : مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني – المجلد السادس والثلاثون

شوال ١٤٠٥ هـ

حزيران ١٩٨٥ م

الجزء الثاني　　المجلد السادس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

شـــوال ١٤٠٥ هـ
حزيران ١٩٨٥ م

بلاد الجزيرة
قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(القسم الثاني)

الموارد الاقتصادية للاقليم

اقليم الجزيرة غني في انتاجه الزراعي وموارده الطبيعية ، يرويه نهران كبيران هما دجلة اولفرات وروافدهما العديدة ، فكانت دجلة تروي منطقة دياربكر ، على حين امتدت ديار مضر على طول نهر الفرات ، وأمد الخابور والزاب الاسفل منطقة ديار ربيعة .

وعلى الرغم من أن دجلة يجري في الجزيرة ، فان مياهه منخفضة عن مستوى الارض ، مما جعل الاستفادة منها صعبة للاغراض الزراعية الا بالوسائل لرفع الماء ، لذلك اعتمد هذا الاقليم على الامطار التي تسقط عادة بين شهري تشرين الاول (أكتوبر) ونيسان (أبريل) سنويا ، كما اعتمد على العيون الكثيرة ، حتى قيل ان مدينة (رأس عين) حوت أكثر من ثلاثمائة عين [٥٣] ، وكانت نصيبين تستمد ماءها من نهر ماؤه من عين تنبع من جبل

---

(٥١) بيت كرماي : يسميها العرب : باجرمى ، تقع شرقي دجلة ، بينه وبين الزاب الاسفل وجبال حمرين ونهر ديالى .

(٥٢) الدولة الحمدانية (١٨٧ ـ ١٩٢) .

(٥٣) صورة الارض (٢٧٨) .

قريب منها [٥٤] • وقامت على الفرات مدن ديـار مضر كالرقـة وقرقيسياء ، فأفادت مزارعها من مياه النهر القريبة التي كانت ترويها بسهولة ويسر لانخفاض ضفاف هذا النهر •

ومجمل القول : ان المدن والارض البعيدة عن مجاري الانهار ، اعتمدت على الامطار والعيون والآبار •

وكانت أهم وسائط الري : الدولاب والدالية والناعورة • والدولاب : آلة تديرها الدابة ليسقى بها • والدالية : آلة ترفع الماء وتديرها الأبقـار • وأما الناعورة : فآلة تركب على الانهار ويديرها الماء [٥٥] •

ويذكر ابن حوقل عروب الموصل الكثيرة في وسط دجلة ، وهي المطاحن القائمة في مجرى النهر الشديد الجريان : « موثقة بالسلاسل الحديد » ، في كل عربة منها أربعة أحجار ، يطحن كل حجرين في اليـوم والليلـة خمسين وِقْراً [٥٦] ، وهذه العروب من الخشب والحديد ، وربما دخل بها شيء من الساج ، ويشير كذلك الى عروب بلد والرقة وقلعة جعبر وتكريت والحديثـة التي كانت قائمة وسط دجلـة ، والتي تجهز المنـاطق المجاورة القريبة منهـا والبعيدة بما تحتاج اليه من طحين [٥٧] •

وكانت أغلب مدن الجزيرة محاطة بالأرض الزراعية ، فقد كانت الموصل الحدباء ـ قصبة ديار ربيعة ـ ذات نـواحٍ عريضة ورسـاتيق [٥٨] عظيمة

(٥٤) رحلة ابن جبـير (١٩٦) •
(٥٥) الحضارة الاسلامية • آدم متز (٢/٢٤٨) •
(٥٦) الوقر : الحمل الثقيل • (ج) : أوقار •
(٥٧) صورة الارض (١٩٨) •
(٥٨) الرساتيق : (ج) رستاق، وهو موضع فيه مزدرع وقرى أو بيوت مجتمعة. (مع) •

وكور [٥٩] كثيرة ، غزيرة الاهل والقرى والقصور والمواشي الى غير ذلك من أسباب النتاج السائمة من الأغنام والكراع [٦٠] • ويعدد ابن حوقل مواد المنطقة ، فيقول : ان المرج اشتهر بسوق الأحد الذي يزخر بالامتعة ، وقردى وبازبدى كانتا تنتجان القمح والشعير والحبوب الاخرى ، بحيث أن كل ضيعة من ضياعها كانت تنتج ألف كُرّ [٦١] من الحنطة والشعير • ويشير ان حوقل الى أنها اشتهرت بانتاج النبيذ الذي يدر موارد على الدولة تعادل ما كانت تدره الواردات الزراعية ، وضرائب الخمرة هي التي كانت تدعى بأموال اللطف[٦٢]• واشتهرت منطقة الخابور بكثرة الغلات والفواكه اليابسة والرطبة ، على حين أنتجت منطقة الموصل كميات هائلة من الحنطة والشعير ، حتى بلغ معدلها ستة آلاف كُرّ حنطة وشعيراً ، قيمتها من الوَرِق[٦٣] ثلاثة آلاف ألف درهم ومن الحبوب وغيرها ما قيمته من الورق مائة وخمسون ألف درهم [٦٤] (عشرة آلاف دينار) •

وكانت الموصل محاطة بمناطق زراعية خصبة للغاية ، ولها كور ورساتيق كثيرة [٦٥] ، تحيط بها البساتين ذات الأثمار والفواكه والخضروات المختلفة، ولعل فستق الموصل من أشهر أنواع الفستق في العالم كله ، ونواحي الموصل الممتدة على ضفتي دجلة شمالا وجنوبا كانت جنات يانعة وحقولا خصبة •

---

(٥٩) كور : (ج) كورة ، وهي البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال .
(٦٠) الكراع : الدواب .
(٦١) الكر : كيل ، وهو ستون قفيزاً ، والقفيز ثمانية . مكاكيك ، والمكوك صاع ونصف الصاع ، انظر المصباح المنير (٧٢٧/٢) .
(٦٢) اللطف : الهدية ، انظر صورة الارض (١٩٦) حول ما ورد عن ذلك المورد.
(٦٣) الورق : المال من الدراهم ، انظر المصباح المنير (٩٠٣/٧) .
(٦٤) صورة الارض (١٩٧) .
(٦٥) صورة الارض (١٩٦) وانظر الاعلاق النفيسة (١٠٦) .

واشتهرت باعشيقا من نواحي الموصل بحقولها المثمرة بالزيتون والنخيل والنارنج التي ترويها عدة جداول [٦٦] وكانت المدينة محاطة ببساتين كثيرة وسهول فسيحة واشتهرت هي وبلد بالطواحين التي كانت في وسط دجلة[٦٧]. وعُرفت نصيبين ببساتينها وكثرة أشجارها المثمرة ، وباتتاجها أفخر أنواع الأرز والقمح والشعير والكروم الرائعة الرخيصة جداً ، فضلا عن مراعيها التي كثرت فيها الاغنام والمواشي ، وبفضل جودة كرومها أنتجت أنواعاً من الشراب [٦٨] .

وكان يحيط بسنجار سهول فسيحة خصبة ومزارع تنتج الأثمار ، كالجوز واللوز والزيتون والاترنج والسمسم والرمان الكبير الذي يصدر حبه الكبير الى نواحي العراق والنواحي الأخرى فضلا عن وفرة النخيل في سنجار ، وهي ميزة امتازت بها على سائر نواحي الجزيرة ، عدا نواحي الفرات وهيت والأنبار [٦٩] ، كما اشتهرت سنجار بالتين الفاخر الذي يجفف ويصدر الى العراق وسورية . واشتهرت ماردين بالاضافة الى فواكهها وكرومها بجوهر الزجاج الذي كان يصدر الى سائر بلدان الجزيرة والعراق وبلاد الروم : « فيفضل على ما سواه بجوهرية فيه »[٧٠] . واشتهرت آمد بأحجار أرحيتها ، حتى كان الحجر الواحد الذي يستخدم للطحن بالعراق يساوي نحو خمسين دينارا [٧١]. وكانت جزيرة ابن عمر تُصدِّر بالسفن الى الموصل العسل والسمن والمن والجبن والجوز واللوز والبندق والزبيب والتين[٧٢] .

(٦٦) صورة الارض (١٩٨) .
(٦٧) صورة الارض (١٩٨) .
(٦٨) صورة الارض (١٩٩) .
(٦٩) صورة الارض (١٩٩) .
(٧٠) صورة الارض (١٩٤) .
(٧١) صورة الارض (٢٠١) .
(٧٢) صورة الارض (٢٠٣) .

وكانت ضواحي بلد كثيرة الشجر والثمر والخُضَر والفواكه والكروم. واشتهرت أَذْرَمَة بكثرة غلاتها ، ودارا بوفرة خيراتها وخصبها ، حتى كان المأكل بالمجان لرخص ثمنها [٧٣] . واشتهرت كَفَر تُوثَا بكثرة أشجارها وأثمارها وزروعها وبساتينها [٧٤] ، واشتهرت رأس عين بالاضافة الى حاصلاتها الزراعية ومنتوجاتها الوفيرة من الفاكهة بالقطن الذي كان ينتج بمقادير كبيرة [٧٥] كذلك كانت حران من مراكز انتاج القطن بالاضافة الى كونها ذات شهرة ذائعة في صناعة الموازين الدقيقة [٧٦] .

ان اقليم الجزيرة اقليم خصب وفير الحاصلات عظيم الغلات كثير الخيرات، حتى قال فيه الاصمعي : « كانت قريش تسأل في الجاهلية عن خصب باعربايا وهي الموصل لقدرها عندهم ، فلم ينلهم في خصبها شيء قط ، وعن ريف الجزيرة وما يليها ، لانها تعدل في الخصب عندهم باعربايا » [٧٧] .

وقد تعددت الحاصلات الزراعية في هذا الاقليم ، كالقمح والشعير والأرز وأشجار الفواكه المتعددة الاصناف كالنخيل والنارنج والزيتون والكمثرى والكروم والسفرجل والرمان والتوت والتين وغيرها من صنوف القطن الذي زرع بوفرة في اقليم الجزيرة . وكانت زراعة التوت تستهدف تربية دود القز ، لانتاج الحرير الذي اشتهرت به الموصل ، كما اشتهرت باعشيقا ببيع البز [٧٩] .

---

(٧٣) صورة الارض (١٩٩) وانظر معجم البلدان (١/١٦٤ ـ ١٦٥) .
(٧٤) صورة الارض (١٩٩) .
(٧٥) صورة الارض (٢٠٠) .
(٧٦) المقدسي (١٤١) .
(٧٧) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (١٣٥) .
(٧٨) صورة الارض (١٩٦ و ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٧) .
(٧٩) معجم البلدان (٢/٤١) .

وكان في باجرمى من نواحي الموصل جبل يسمى : (شـعران) لكثرة اشجاره ، ويقال للشجر الشّعراء ، وهو جبل قنديل ، وهو من أعمر الجبال وفيه الكمثرى والعنب وأنواع الطير ، كما اشتهر بالاشجار الضخمة التي كانت تقطع جذوعها وترسل الى العراق[٨٠] ، وكانت هذه الاخشاب تنقل بالنهر بعد تنضيدها في أكلاك ، تحمل بالحنطة والشعير والأرز والمواد المتيسرة الاخرى، فاذا وصلت الى مستقرها بيعت الاخشـاب وما تحمله من مـواد تموينية ، فتستخدم الاخشاب في البناء وصـناعة السفن والاثاث المنزلية والأبـواب والشبابيك وغيرها .

واستخدم زيت الزيتون لصناعة الصابون ، وكانت مدينة الرقة معـدن الصابون الجيد والزيتون [٨١] ، واشتهرت مراعي الجزيرة شهرة عريضة ، مما أدى الى كثرة الأغنام والمواشي والأبقار وكثرة ما تنتجه من جلـود استغلت لصناعة الاحذية والسروج وغيرها من المصنوعات الجلدية ، فاختصت سنجار بالمهارة في صناعة الاحذية واشتهرت بكثرة اساكفتها [٨٢] ، كما اشـتهرت الموصل بالسروج وعدد الخيل والبغال وغيرها من الحيوانات التي يستفاد منها لأغراض الحمل والتنقل .

وبجانب الثروة الزراعيـة الهائلـة ، كانت منطقة الجزيرة منطقة مراعٍ شهيرة ، فاذا أصيبت الجزيرة العربية أو بعض أجزائها بالجدب ، تنقل العرب بمواشيهم الى مراعي الجزيرة الخصبة في سهولها وهضابها ووديانها الغزيرة الأمطار نسبياً . قال ابن حوقل عن نصيبين : «انها كثيرة السائمة والكراع»[٨٣]،

(٨٠) مختصر كتاب البلدان (١٣١ ـ ١٣٢) .
(٨١) مختصر كتاب البلدان (١٤١) .
(٨٢) مختصر كتاب البلدان (١٤٠) .
(٨٣) صورة الارض (١٩١) .

وعن الموصل : « انها اشتهرت بتربية الغنم والبقر [٨٤] » ، واشتهرت الجزيرة بالأفراس الجزرية [٨٥] ، واشتهرت حديثة الموصل بكثرة الصيود [٨٦] ، واشتهرت جزيرة ابن عمر بصناعة العسل والجبن والمن [٨٧] .

وكان بالرقة دُهْن الخَطَّارة [٨٨] : « وفيه أعجوبة ، وذلك أنه لا يُتخذ الا في حانوت بها معروف ، فان اتخذ في غيره من الحوانيت فسد ، وخاصته أنه نافع للرياح والنقرس » [٨٩] ، فهو اذن مرهم طبي شديد الفاعلية ويحتاج الى رعاية وعناية وحفظ في جو معين كي لا يفسد . وكانت الأعشاب الطبية معروفة لدى العطارين بخاصة والمتطببين بعامة ولها رواج عظيم ، وكان التداوي بالأعشاب الطبية شائعاً في مدن الجزيرة كالموصل وغيرها .

وكان يصدر الملح من الجزيرة الى العراق ، فقد اشتهرت براري الجزيرة بالملح والأُشْنَان [٩٠] اللذين يصدران الى العراق [٩١] ، كما هناك معدن الحديد الذي تصنع منه الاسلحة كالسيوف والخناجر ويدخل في المشاريع العمرانية وبخاصة في صناعة الشبابيك والابواب . أما الحجارة المتعددة الأصناف والكلس والجص ، فقد حفلت بها مدن الجزيرة وساعدت أن تشيد بها أبنية ملونة وصروح شامخة وقصور ودور وأسوار منيعة .

---

(٨٤) صورة الارض (١٩٣) .
(٨٥) مختصر كتاب البلدان (١٣٥) .
(٨٦) صورة الارض (١٩٨) .
(٨٧) صورة الارض (٢٠١) .
(٨٨) الخطارة : الخطار هو دهن يتخذ من الزيت بأفاويه من الطيب . ومسك خطار : نفاح .
(٨٩) مختصر كتاب البلدان (١٣٤) .
(٩٠) الاشنان : شجر من الفصيلة الرمرامية ينبت في الارض الرملية ، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والايدي .
(٩١) صورة الارض (٢٠٥) .

ولابد من أن الثورة المعدنية في اقليم الجزيرة كانت وفيرة وان لم يستطع أبناء عصر قبل الاسلام أن يكتشفوها ويستغلوا منافعها الحيوية للناس • يقول ابن الفقيه : « ان الجبل الذي بآمد ، فيه صدع ، فمن انتضى سيفه فأولجه فيه وقبض على قبيعته بجميع يديه ، اضطرب السيف في يديه وأرعد القابض وان كان أشد الناس • وفيه أعجوبة أخرى ، أنه متى يحك بذلك الجبل سكين أو حديد أو سيف ، حملَ ذلك السيف والسكين الحديد ، وجذب الابر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس • وفيه أعجوبة أخرى ، وهي أنه لو بقى مائة سنة لكانت تلك القوة قائمة فيه » (٩٢) ان هذه الخاصية الكهربائية والمغناطيسية كانت تدلّل على وجود ثروة معدنية كامنة في صخور جبل آمد لم يتح لذلك العصر الموغل في القِدم استغلالها كما ينبغي •

وهكذا يمكن القول : ان الجزيرة كانت اقليماً واسع الغنى وفير الثروة عظيم الانتاج في مجالات الثروة الزراعية والحيوانية والصناعية ، وهو ما يسوغ ويفسر الصراع العسكري الحاد الذي دار بين الدولتين العظميين قبل الاسلام : الساسانية والبيزنطية ، للاستئثار به وامتلاكه (٩٣) •

كما أن هذا الغِنى والرخاء في هذا الاقليم وخصوبة أرضه وغزارة مياهه وعذوبة طقسه واعتدال هوائه ، جعله محط أنظار العرب منذ أقدم العصور ، فسكنوه قبل قرون طويلة لا يمكن تحديدها قبل الاسلام ، وشجعهم على اللجوء الى رحابه في سني القحط في جزيرتهم العربية ، فمنهم من يعود الى

(٩٢) مختصر كتاب البلدان (١٣٣) .
(٩٣) انظر التفاصيل في : صورة الارض (١٨٧ ـ ٢٠٧) ومختصر كتاب البلدان (١٢٨ ـ ١٣٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (٩٣ ـ ٩٨) وتقويم البلدان (٢٧٣ ـ ٢٨٩) والمسالك والممالك (٥٢ ـ ٥٥) وانظر بلدان الخلافة الشرقية (١١٤ ـ ١٤٦) والدول الحمدانية (١/١٩٢ ـ ١٩٩) .

دياره بعد أن يزول الجفاف ، ومنهم من يستقر في الجـزيرة ، وحملهم على الهجرة من الجزيرة العربية أيضاً تزايد السكان فيها أو من جراء الاقتتال بين القبائل العربية ، فينزح مَنْ يُهزم ، ويستقر مَنْ يَغْلِب ، فيجد المهزوم له ملجأً يأوى اليه في رحاب اقليم الجزيرة الغنى المعطاء •

لقد كان اقليم الجزيرة ينتج مختلف أنواع الحبوب التي تفيض على حاجة سكانه فيصدرها الى البلدان المجاورة ، وبخاصة العراق وبلاد الشام ، كما كان ينتج مختلف أنواع الاثمار والخُضَر •

كما كانت مراعي الجزيرة من أشهر وأخصب مراعي المنطقة كلها بما فيها العراق وبلاد الشام ، وكانت دائمة الخضرة غنية بالاعشاب والكلأ ، يؤمها أصحاب المواشي من كل حدب وصوب عند جفاف مناطقهم الاصلية ، وبخاصة مناطق الجزيرة العربية التي كثيراً ما تصاب بالجدب والجفاف والقحط •

وكان هذا الاقليم غنياً بموارده الحيوانية : الأغنام ، والمواشي ، والأبقار ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، وتصدر الأغنام والأبقار بخاصة الى بلاد الشام •

وكانت تصدر الجبن والسمن الى العراق وبلاد الشام أيضاً ، وتصدر الصابون الى العراق •

وكانت تصنع الملابس القطنية والحريرية والصوفية ، واشتهرت الموصل بأقمشتها الفاخرة ، كما صنعت الجزيرة السجاد والسيوف والخناجر والمدى والاسلحة الجارحة المصنعة من الحديد ، وتصدر الادوية المصنعة من الاعشاب الطبية والملح •

تاريخ اقليم الجزيرة قبل الفتح الاسلامي وفي ايامه الأولى

حين استغل سكان الجزيرة طاقات أرضهم الخصبة الغنية وثرواتها لأنفسهم ، وسخروا طاقات بلادهم الطبيعية والبشرية لخير بلادهم ومصالحها، وسخروا طاقاتهم المعنوية بالاضافة الى طاقاتهم المادية للدفاع عن أرضهم وصيانة استقلالها ، حكموا بلادهم وحكموا البلاد المجاورة ، وسجلوا في صفحات التاريخ البشري صفحات ناصعة مشرفة عسكرياً وسياسياً وحضارياً ، كما ذكرنا ذلك في الحديث عن سكان الجزيرة ، وكان هذا في القرون التي سبقت الميلاد •

ولكنهم حين استسلموا للترف ، ومالوا الى الدعة ، واهتم كل فرد بنفسه وبما في حياته المادية من دعة واستقرار وثراء ، تكالبت عليهم الأمم ، فكانوا تارة تحت حكم الفرس ، وتارة تحت حكم اليونانيين ، وتارة تحت حكم الروم، وكان اقليم الجزيرة بعد الميلاد وقبل الاسلام يرزح تحت استعمار الساسانيين مرة ، وتحت استعمار البيزنطيين تارة أخرى •

وقبل الفتح الاسلامي مباشرة ً،كان اقليم الجزيرة تحت حكم البيزنطيين، فقد قاتل المسلمون الفاتحون في مدينة تكريت الروم َ ومن معهم من جيشهم المحلي المؤلف من العرب : اياد وتغلب والنمر والآراميين [٩٤] ، كما قاتلوا الروم وحلفاءهم في الموصل أيضا[٩٥] ، كما كانت سنجار في أيدي الروم[٩٦] ، وقد أراد بنو تغلب أن يلحقوا بأرض الروم بعد فتح شق الفرات الشامي : عانات

(٩٤) ابن الأثير (٥٢٣/٢) •
(٩٥) ابن الأثير (٥٢٤/٢) •
(٩٦) فتوح البلدان (٢٤٤) •

وسائر حصون الفرات [٩٧] ، فصولحوا بعد أن عبروا الفرات وأرادوا اللحاق بالروم [٩٨] ، ومعنى ذلك أن اقليم الجزيرة كان تحت حكم البيزنطيين قُبَيْل الفتح الاسلامي وفي أيامه •

ولا يهمنا كثيراً تاريخ الجزيرة قبل الميلاد ، فقد استوفاه المؤرخون في بحوث التاريخ القديم ، فليرجع الى ما استوفوه في المصادر والمراجع التاريخية من يريد •

أما بعد الميلاد ، فقد أصبح تاريخ الاقليم جزءاً من تاريخ الدولة الساسانية الذي استوفيناه في مقدمة كتاب : قادة فتح بلاد فارس[٩٩] ، فلا مجال لتكراره هنا ، اذ لا فائدة من الحديث المعاد ، ومن أراد دراسته فليطلع عليه في مكانه المذكور وفي مصادره الاخرى •

أما مجمل تاريخ البيزنطيين ، فسيرد ذكره وشيكا في الحديث على : بلاد الروم ، الذي ينشر بعد هذا البحث باذن الله ، لأن تاريخ اقليم الجزيرة أصبح جزءاً من تاريخ الدولة البيزنطية •

وهكذا أصبح تاريخ الجزيرة العريق قبل الميلاد ، تاريخاً يتصل بالحاكمين أكثر مما يتصل بالسكان الاصليين ، فأصبح تاريخاً غير عريق ، لأنه يتصل بالغرباء ويبتعد عن أهل الدار ، وتلك عبرة لمن يريد أن يعتبر •

فتح الجزيرة

١ ـ الموقف العام :

فتح المسلمون الجزيرة سنة سبع عشرة الهجرية [١٠٠] (٦٣٨م) ، وكان

---

(٩٧) فتوح البلدان (٢٥٠) •
(٩٨) فتوح البلدان (٢٥١) •
(٩٩) قادة فتح بلاد فارس (٩ ـ ٨٠) •
(١٠٠) الطبري (٤/٥٣) وابن الأثير (٢/٥٣٢) •

سبب فتحها ، أن أهلها استثاروا الروم على أهل (حِمْص) ، فقصد الروم أبا عبيدة بن الجراح [١٠١] ومن معه من المسلمين بحمص ، وحاصروا المسلمين في هذه المدينة [١٠٢] .

وكان عمر بن الخطاب رضي‌الله عنه خليفة المسلمين الثاني ، قد اتخذ في كل مصر من أمصار المسلمين خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عُدّة لمعالجة المواقف العسكرية الطارئة ، كهجوم معادٍ غير متوقع على مواضع المسلمين ، أو تردى الموقف العسكري في جبهة من الجبهات الحيوية ، أو قيام المسلمين بالتعرض على العدو دفاعاً عن فتوحهم باعتبار أن الهجوم أنجع وسائل الدفاع . وكان بالكوفة من تلك الخيول الجاهزة أربعة آلاف فرس ، وكان المسؤول عليها سلمان بن ربيعة الباهلي [١٠٣] ونفر من أهل الكوفة . ولما سمع عمر بن الخطاب بزحف حشود الروم الى (حِمْص) ومحاصرتها بقوات متفوقة على قوات المسلمين ، كتب الى سعد بن أبي وقاص [١٠٤] رضي‌الله عنه في الكوفة : « أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو [١٠٥] ، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي الى حمص ، فان أبا عبيدة قد أحيط به ، وتقدم اليهم في الجد والحَثّ » . ولم يكتف عمر بن الخطاب بذلك ، بل كتب الى سعد ابن أبي وقاص : «سرّح سُهَيْل بن عَدِي» [١٠٦] الى (الرَّقّة) ، فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وأمره أن يُسرّح عبدالله

---

(١٠١) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح الشام ومصر (٥٤ ــ ٨١) .
(١٠٢) ابن الأثير (٤/٥٣) .
(١٠٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح ارمينية .
(١٠٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ ــ ٢٩٦) .
(١٠٥) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١ــ٣٥٥) .
(١٠٦) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٠ــ٤٨٥) .

ابن عتبان [١٠٧] على نصيبين ثم ليقصد حران والرها ، وأن يسرح الوليد بن عُقْبَة [١٠٨] على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ ، وأن يُسرِّح عِيَاض ابن غنم [١٠٩] ، فان كان قتال فأمرهم الى عياض » •

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص ، وهم معهم في حصار تلك المدينة ، خبرُ المسلمين الذين قصدوا الجزيرة ، تفرقوا الى بلادهم وفارقوا الروم ، فأصبح الروم الذين يحاصرون حمص ضعفاء ، فقاتلهم أبو عبيدة بن الجراح وانتصر عليهم ، فانسحبوا الى بلادهم [١١٠] مدحورين •

ومن الواضح أن تفرق أهل الجزيرة الذين كانوا مع جيش الروم في حصار حمص وعودتهم الى ديارهم بسبب الدفاع عن بلادهم بعد أن هددها المسلمون الفاتحون ، لان الدفاع عن الوطن مقدم على الدفاع عن غير الوطن، فما كان بمقدور أهل الجزيرة ولا بمقدور غيرهم أن يصبروا على تعرض وطنهم للخطر وهم يقاتلون بعيداً عنه في بلاد غير بلادهم وفي أرض غير أرضهم ووطن غير وطنهم •

ولكن أهل الجزيرة استثاروا الروم على أهل حمص ، حين كان المسلمون قد اقتربوا بفتوحاتهم من اقليم الجزيرة، خوفا من اقدام المسلمين الفاتحين على فتح الجزيرة كما فتحوا العراق وبلاد الشام ، فاستثارتهم للروم لاستنقاذ حمص من المسلمين في الواقع هو دفاع مباشر عن بلادهم ، ومحاولة نقل مسرح العمليات الى خارج أرضهم ، قبل أن تصبح بلادهم مسرحاً لعمليات فتوح المسلمين •

---

(١٠٧) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٦–٤٩٢).
(١٠٨) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣–٥١٤).
(١٠٩) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩–٤٧٩).
(١١٠) الطبري (٤/٥١ – ٥٢) وابن الأثير (٣/٥٣١) .

ولم ينجح أهل الجزيرة في خطتهم السوقية في نقل مسرح العمليات بعيدا عن بلادهم ، لان عمر بن الخطاب بما عرف عنه من خطط سوقية سليمة ، أجبرهم على التخلي عن الروم في أحرج الاوقات ، فعادوا أدراجهم الى بلادهم للدفاع عنها ، وهكذا أخفقت خطة أهل الجزيرة في الدفاع عنها خارجها ، وأخفقت تنيجة لذلك خطة الروم في حصار حمص واستنقاذها من المسلمين الفاتحين .

الا أن القول بأن عمر بن الخطاب خطط للتعرض باقليم الجزيرة وفتحه لصرف أهله عن معاونة الروم في حصار حمص واستعادتها الى سيطرة الروم ، كما كانت عليه قبل فتحها من المسلمين ، لا يُغنى عن كل قول ، فالواقع أن الروم الذين كانوا يحتلون الجزيرة ، يهددون تهديداً مباشراً الحدود الشمالية الغربية للعراق والحدود الشمالية الشرقية لبلاد الشام ما داموا في الجزيرة ، وحماية هذه الحدود لا يكون الا بفتح الجزيرة والقضاء على خطر الروم القادم من أرجائها .

ان استثارة أهل الجزيرة للروم على أهل حمص ثم كانوا مع الروم في حصارها ، هو السبب المباشر لفتح الجزيرة ، ولكنه ليس السبب المهم ، أما السبب غير المباشر فهو حماية الحدود الشمالية للعراق وبلاد الشام المتاخمة للروم ، وهو السبب المهم ، وقد يكون حصار حمص من الروم وأهل الجزيرة قد عجل في فتح الجزيرة ، اذ كان الفتح قادماً ولو بعد حين ، تبعاً للظروف والأحوال .

وانطلق قادة فتح الجزيرة الاولون الى أهدافهم المرسومة بموجب خطة واضحة : عياض بن غنم الفهري ، وسهيل بن عدي الخزرجي ، وعبدالله بن عتبان الانصاري ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط الاموي القرشي ، وعمير

ابن سعد الانصاري [١١١] ، ففتحوا الجزيرة كلها على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حتى لم يبق منها موضع قدم الا فُتح على عهده[١١٢] .

وفي رواية : أن فتح الجزيرة كان سنة ثماني عشرة الهجرية [١١٣] لا سنة سبع عشرة الهجرية كما ذكرنا من قبل . وفي رواية أخرى : أن فتحها كان سنة تسع عشرة الهجرية [١١٤] .

وفتحها سنة سبع عشر الهجرية أصح ، لانه جاء لغرض تخفيف الضغط عن المحصورين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح في حمص من زحف الروم عليهم وحصارهم داخل تلك المدينة، وكان هذا الحصار سنة سبع عشرة الهجرية[١١٥] .

لقد كانت الجزيرة أسهل البلاد فتحا[١١٦] ، وكان لعامل المباغتة أثر واضح في الاسراع بفتح الجزيرة ، فقد هاجمهم المسلمون الفاتحون في وقت لا يتوقعونه ، اذ كانوا مدافعين في ساحة عمليات بلاد الشام ، وكانت المبادأة بيد الروم ، وكان الروم هم المحاصِرين ، وكان المسلمون هم المحاصَرين ؛ ولكن مهاجمة الجزيرة مباشرة ، قلب خطط المسلمين الدفاعية الى خطط تعرضية ، وباغت الروم وأهل الجزيرة بخطط المسلمين التعرضية وبسرعة تنفيذها ، فلم يبق أمامهم الا الانسحاب والاستسلام ، لان التعرض الاسلامي المباغت السريع، أربك خطط المدافعين عن الجزيرة ، فاستسلمت الجزيرة بسرعة ويسر للفاتحين.

---

(١١١) انظر سيرته في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٥١٣ ـ ٥١٩) .
(١١٢) فتوح البلدان (٢٤٠) والاستيعاب (١٢٤٣/٣) .
(١١٣) فتوح البلدان (٢٣٧) .
(١١٤) الطبري (٥٣/٤) وابن الأثير (٥٣٣/٢) .
(١١٥) الطبري (٥٠/٤) وابن الأثير (٥٣٠/٢) .
(١١٦) الطبري (٥٤/٤) وابن الأثير (٥٣٢/٢) .

٢ ـ فتح عِياض :

لما قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص ، كتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطـاب بذلك ، فكتب عمر الى سـعد بن وقاص أن يسرح عياض بن غنم ، على أن يكون عياض على المسلمين اذا نشب القتال .

وخرج عياض وأمراء الجزيرة ، فأخذوا طريق الجزيرة ، وتوجه كل أمير الى المنطقة التي أمر عليها ، فأرسل سهل بن عدى الى الرقة وقد ارفض أهـل الجزيرة عن حمص الى كورهم حين سمعوا بقدوم أهل الكوفة الى بلادهم ، فنزل سهل على الرقة وحاصرها حتى صالحه أهلها ، فبعث بذلك الى عياض ، فقبل من أهل الرقة وصالحهم وصاروا ذمة .

وخرج عبدالله بن عتبان الى نصيبين ، فلقوه بالصلح وصنعوا كصنع أهل الرقة ، وكتبوا الى عياض ، فقبل منهم وعقد لهم .

ولما فتح المسلمون الرقة ونصيبين ، ضم عياض اليه سُهَيْلاً وعبدالله، وسار بالناس الى حران ، فلما وصل اليها أجابه أهلها الى الجزية ، فقبل منهم. ثم ان عياضاً سرح سُهيلاً وعبدالله الى الرُّهـا ، فأجابوهما الى الجزيـة ، فكانت الجزيرة أسهل البـلاد فتحاً (١١٧) ، وكانت تلك السـهولة مهجنـة عليهم (١١٨) ، لانهم لم يدافعوا عن بلادهم كما ينبغي .

وكان نص كتاب عياض لأهل الرُّها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرُّها ، اني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسـائهم ومدينتهم وطواحينهم ، اذا

(١١٧) الطبري (٥٤/٤) وابن الأثير (٥٣٢/٢) .
(١١٨) الطبري (٥٤/٤) .

أدوا الحق الذي عليهم ، وأن يصلحوا جسورنا ، ويهـدوا ضالنا ، شهد الله وملائكته والمسلمون » .

وسار عياض الى سميساط ، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل الرُّها . وكان عياض يغزو من الرُّها ثم يرجع اليها . وأتى عياض سروج ورأسكيفا[119] والارض البيضاء [120] فغلب على أرضها وصالح أهل حصونها على مثل صلح الرُّها . ثم ان سميساط كفروا ، فلما بلغه ذلك رجع اليهم فحاصرها حتى فتحها ثانية . وبلغه أن أهل الرُّها قـد نقضوا ، فلما أناخ عليهم فتحوا له أبـواب مدينتهم ، ففتحها ثانية وخلف عليها عامله في جماعة . ثم أتى قُرَيَّات الفرات وهي جسر منبج وذواتها ، ففتحها على ذلك . وأتى عين الوردة وهي راس عين فامتنعت عليه ، فتركها . وأتى تل مَوْزَن [121] ففتحها على مثل صلح الرُّها . ووجه عياضُ حبيبَ بن مَسْلَمَة الفِهْرِي [122] الى قَرْقِيسِيَاء ففتحها صلحاً على مثل صلح الرقة . وفتح عياض آمِد بغير قتال على مثل صلح الرُّها ، وفتح ميافارقين على مثل ذلك ، وفتح حصن كَفَرتُوثا وفتح نصيبين بعـد قتال على مثل صلح الرُّها . وفتحُ طور عبدين [123] وحصن ماردين ودارا على مثل ذلك . وفتح قردى وبازبدى على مثل صلح نصيبين . وأتاه بطريق

(١١٩) راسكيفا : أصلها : راس كيفا ، من ديـار مصر بالجزيرة قرب حران ، انظر معجم البلدان (٤/٢٠٧) .

(١٢٠) الارض البيضـاء : البيضاء عين ماء قريبة من بومارية بين الموصل وتـل يعفر ، انظر معجم البلدان (٢/٣٣٦) .

(١٢١) تل موزن : بلد قديم بين مدينى راس عين وسروج ، بينه وبين راس عين نحو عشـرة أميال ، انظر معجم البلدان (٢/٤٠٩) .

(١٢٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .

(١٢٣) طور عبدين : بليدة من أعمـال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليهـا المتصل بجبل الجودي ، انظر معجم البلدان (٦/٦٩) .

الزوزان (١٢٤) ، فصالحه عن أرضه على اتاوة • ثم سار الى أرزن (١٢٥) ، ففتحها على مثل صلح نصيبين ، وكان عياض قد فتح سنجار أيضا •

ودخل (الدرب) (١٢٦) فبلغ بدليس وجازها الى خلاط وصالح بطريقها، وانتهى الى العين الحامضة من ارمينية فلم يعدها ، ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط وجماجمها وما على بطريقها ، ثم انصرف الى الرقة •

وبعث عمير بن سعد الانصاري بأمر عمر الى عين الوردة ، ففتحها عنوة، فلم يبق في الجزيرة موضع قدم الا فُتح في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يدي عياض (١٢٧) •

قال عياض في فتح الجزيرة :

مَنْ مُبلِغ الأقوامِ أنّ جمــو عَنــا
حوَتِ الجزيرةَ يوم ذاتِ زِحامِ (١٢٨)

جَمعوا الجزيرةَ والغِياثَ فَنَفّسُوا
عَمّنْ بِحِمْصَ غَيَابَةَ القُــدّامِ

إنّ الأَعِزّةَ والأكارِمَ مَعْشَرٌ
فَضّوا الجزيرة عن فِراخِ الهامِ (١٢٩)

---

(١٢٤) الزوزان : ناحية واسعة شرقي دجلة من جزيرة ابن عمر ، انظر معجم البلدان (٤١٥/٤) .
(١٢٥) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، انظر معجم البلدان (١٩٠/١) .
(١٢٦) الدرب : الطريق الذي يسلك مابين طرسوس وبلاد الروم ، انظر معجم البلدان (٤٨/٤) .
(١٢٧) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٤٠ ــ ٢٤٣) ، وقد فتح نصيبين أولا عبدالله بن عتبان ، ويبدو أنها انتقضت ففتحها عياض ثانية .
(١٢٨) في معجم البلدان : رجام ، انظر معجم البلدان (٩٨/٣) .
(١٢٩) في معجم البلدان : فراج ، انظر معجم البلدان (٩٨/٣) .

غَلَبوا الملوكَ على الجزيرةِ فانْتَهَوْا
عن غزوِ مَنْ يأوى بلادَ الشّامِ (١٣٠)

وقد صدق عياض ، أن حالَ فتحُ الجزيرة دون غزو بلاد الشام ، وحمى المسلمين الفاتحين في بلاد الشام من غائلة الغزو الرومي .

وكان فتح عياض ، فتحاً سريعاً سهلاً ، قليل التكاليف المادية والمعنوية.

ولا نعلم بالضبط تعداد المسلمين الفاتحين الذين كانوا بامرة عياض وامرة قادته المرؤوسين ، الذين عملوا بقيادته في فتح الجزيرة ، وما ورد أن تعدادهم كان خمسة آلاف (١٣١) ، غير منطقي ، لانه قليل جدا .

٣ – فتح سُهَيْل :

خرج عياض بن غنم ومن معه من القادة ، فأرسل سُهَيْلاً الى الرقة ، فسلك طريق الفراض (١٣٢) حتى انتهى الى الرقة ، فحاصرها حتى صالحه أهلها، وبعثوا بذلك الى عياض ، فقبل منهم وصالحهم وصاروا ذمة .

ولما فتح المسلمون الرقة ونصيبين ضم عياض اليه سهيلاً وعبدالله بن عتبان وسار بالناس الى حران ، فلما انتهى اليها اتقاه أهلها بالاجابة الى الجزية فقبل منهم ، وأجرى مَنْ أجاب بعد غَلَبِهِ مَجْرى أهل الذمة .

ثم ان عياضاً سرح سُهيلاً وعبدالله الى الرُّهاء ، فاتقوهما بالاجابة الى الجزية أيضاً (١٣٣) .

---

(١٣٠) الطبري (٤/٥٤ – ٥٥) ومعجم البلدان (٩٨/٣) .
(١٣١) فتوح البلدان (٢٣٧) .
(١٣٢) الفراض : موضع على تخوم الشام والعراق والجزيرة ، في شرقي الفرات ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٠/٦) .
(١٣٣) الطبري (٥٤/٢) وابن الاثير (٥٣٢/٢) .

وهكذا كان سهيل الساعد الايمن لعياض في فتح الجزيرة بسرعة ويسر وسهولة .

٤ – فتح عبدالله بن عِتْبَان :

كان مجمل خطة عمر بن الخطاب التي أصدرها لسعد بن أبي وقاص ، أن يسرح سهيل بن عدى الى الرقة ، وأن يسرح عبدالله بن عتبان الى نصيبين، فسلك عبدالله الطريق المحاذية الى مدينة الموصل ، وعبر من هناك حتى وصل الى نصيبين ، فصالحه أهلها ، وعقد لهم عبدالله (١٣٤) .

ولما أعطى أهل الرقة الصلح لسهيل بن عدى وأهل نصيبين الصلح لعبدالله، ضمّ عياض بن غنم اليه سهيلاً وعبدالله وسار بالناس الى حران وأخذ ما دونها ، وعندما انتهى اليها أجابه أهلها الى الجزية ، فسرح سهيلاً وعبدالله الى الرّها ، فأجابهما أهلها الى الجزية أيضا (١٣٥) .

وعاد عبدالله الى الكوفة بعد انتهاء واجبه في فتح الجزيرة .

٥ – فتح الوليد بن عُقْبَة :

كان الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي في العراق حين قصد الرّوم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص ، فأمر عمر بن الخطاب سعدَ بن أبي وقاص أن يسرح القادة الذين ذكرناهم لفتح الجزيرة ويسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ .

وقدم الوليد على عرب الجزيرة ، فنهض معه مسلمهم وكافرهم الا بنى اياد بن نزار (١٣٦) ، فانهم ارتحلوا الى أرض الروم (١٣٧) .

---

(١٣٤) الطبري (٤/٥٤) وابن الأثير (٢/٥٣٢) .
(١٣٥) الطبري (٤/٥٢) وابن الأثير (٢/٥٣٢) .
(١٣٦) اياد بن نزار بن معد بن عدنان ، انظر جمهرة انساب العرب (١٠) .
(١٣٧) الطبري (٤/٥٤) وابن الأثير (٢/٥٣٢) .

وكتب الوليد الى عمر بن الخطاب بالمدينة يخبره بما صنعوا ، وأقام ينتظر جوابه في أمرهم .

وكتب عمر الى هِرقل ملك الروم يقول : « بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ! فوالله لتخرجنه الينا أو لنخرجن النصارى اليك » ، فلم يجد هرقل بُدأ من النزول على ما أراد عمر ، فأخرج اياداً من بلاده ، فعاد أربعة آلاف منهم الى منازلهم التي فتحها المسلمون ، وتفرق بقيتهم فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم ، فكل ايادي في أرض العرب من أولئك الاربعة آلاف [١٣٨] . وانما كتب عمر الى هرقل هذا الكتاب ، حتى لا يتخذ المنهزمون أمام المسلمين أرض عدوهم ملجأً يتحصنون به ليوم ثأر ، وحتى يجمع العرب كلهم في صعيد واحد تحت سلطان واحد [١٣٩] .

وأبى الوليد أن يقبل من تغلب الا الاسلام ، وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب ، فكتب اليه عمر : « انما ذلك لجزيرة العرب ، لا يقبل منهم الا الاسلام ، فدعهم على الا ينصّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الاسلام » ، فلما بلغهم حكم عمر فيهم رضى بعضهم أن يدخل في دين الله ، وأصر بعضهم على نصرانيته ، ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية [١٤٠] .

وقصد وفد من تغلب المدينة المنورة ، وكان بينهم قسم ممن أسلم منهم، فقال مسلموهم لعمر : « لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم ، فيكون جزاء ، فانهم يغضبون من ذكر الجزية ، على ألا ينصّروا مولودا اذا أسلم آباؤهم » . وأصر عمر على أن

(١٣٨) الطبري (٤/٥٥) وابن الأثير (٢/٥٣٣) .
(١٣٩) الفاروق عمر للدكتور هيكل (١/٢٦٩) .
(١٤٠) الطبري (٤/٥٥) وابن الأثير (٢/٥٣٣) .

يؤدوا الجزاء ، فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء ، لندخلن أرض الروم! والله لتفضحنا من بين العرب » ، فقال لهم : « أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحيــة ، وتا لله لتؤدنه وأنتم صغرة قماة ، ولئن هربتم الى الروم لأكتبن فيكم ولأسبينكم » ، فقالوا : « فخذ منا شيئاً ولا تسمّه جِزاء !! » ، فقال : « أما نحن فنسميه جِزاء ، وسموه أنتم ما شئتم ! » ، فقال علي بن أبي طالب لعمر رضي الله عنهما : « يا أمير المؤمنين ! ألم يضعف عليهم سعد بن مالك [١٤١] الصدقة ؟ » ، فقـال عمر : « بلى ! » ، فرضى عمر منهم الصدقة بدل الجِزاء ، فرجعــوا على ذلك • وكان في بني تغلب عز وامتناع ، ولا يزالون ينازعون الوليــد ، فهمّ بهم ، فخاف عمر أن يُحرجوه فيضعف صبره فيسطو عليهم ، فعزله عن الجزيرة [١٤٢] كيما يطمئن الى توطيد العلاقة الحسنة بين الحاكم والمحكوم ويضمن أمن واستقرار الجزيرة، ويجنبها القلاقل والفتن دون مسوغ ، لذلك عزله عمر وولى من يحقق له هذه السياسة الحصيفة •

٦ ـ فتح عُمَيْر بن سَعْد :

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عياض بن عنم يأمره أن يوجــه عُمير بن سعد الى (عين الوردة) [١٤٣] ، فوجهه عياض اليها وقدم الطلائــع أمامه ، فأما من الفلاحين وغنموا مواشي من مواشي العدو ، ولكن أهل المدينة أغلقوا أبوابها ونصبوا المنجنيقات ، فقتل من المسلمين بالحجــارة والسهــام كثيرون •

---

(١٤١) هو سعد بن أبي وقاص فاتح العراق .
(١٤٢) الطبري (٥٦/٤) وانظر فتوح البلدان (٢٤٩ ــ ٢٥٢) .
(١٤٣) عين الوردة : هي مدينة راس عين ، المدينة المشــهورة بالجزيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٨/٦) .

وكانت مدينة عين الوردة (رأس عين) قد امتنعت على عياض بن غنم من قبل ، ففتحها عُمير بن سعد والي عمر بن الخطاب على الجزيرة بعد أن قاتل أهل هذه المدينة المسلمين قتالا شديدا ، ولكن المسلمين فتحوها عنوة ، ثم صالحوا أهلها بعد ذلك ، فدفعت الأرض الى أهلها الأصليين ، ووضعت الجزية على كل فرد من أفراد المدينة أربعة دنانير، ولم تُسب نساؤهم ولا أولادهم(١٤٤).

ولما فتح عمير مدينة رأس عين ، سلك الخابور وما يليه حتى أتى قرقيسياء وقد نقض أهلها ، فصالحهم على مثل صلحهم الاول . ثم أتى حصون الفرات حصنا حصنا ، ففتحها على ما فُتحت عليه قرقيسياء ، ففتح ثانية عانات والناووسة وآلوسة . وفي مدينة هيت وجد عمار بن ياسر (١٤٥) وهو عامل عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد بعث جيشا يستغزي المنطقة الكائنة شمالي مدينة الانبار وعليه سعد بن عمرو بن حرام الانصاري (١٤٦) ، فانصرف عُمير الى الرقة (١٤٧) .

وكتب عُمير الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يعلمه أنه أتى شق الفرات الشامي ، ففتح عانات وسائر حصون الفرات ، وأنه أراد من هناك من بني تغلب على الاسلام ، فأبوه وهموا باللحاق بأرض الروم ، وسألوه أن يأذن لهم في الجلاء ، واستطلع رأي عمر فيهم ، فكتب اليه عمر يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل ساحة وأرض ، فقبلوا

---

(١٤٤) فتوح البلدان (٢٤٢ ــ ٢٤٣) وانظر ابن الأثير (٥٣٥/٢) .

(١٤٥) عمار بن ياسر : انظر سيرته في : الاستيعاب (١١٣٥/٣) واسد الغابة (٣/٤) والاصابة (٢٧٣/٤) .

(١٤٦) سعد بن عمرو بن حرام الانصاري : انظر سيرته في : أسد الغابة (٢٨٨/٢) .

(١٤٧) فتوح البلدان (٢٤٦) .

أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة ، فقالوا : «أما اذا لم تكن جزية ، فانّا نرضى ونحفظ ديننا» (١٤٨) .

٧ ـ مجمل الفتح :

لم يبق بالجزيرة موضع قدم الا فتح على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يدي عياض بن غنم(١٤٩) ، كما ذكرنا ذلك في قصة فتح هذا الاقليم ، وبمعاونة قادته المرؤوسين تحقق هذا الفتح .

وقد جرى مجمل الفتح أو الفتح الاول لهذا الاقليم سنة سبع عشرة الهجرية (١٥٠) (٦٣٨م) ، وقد ذكر قسم من المؤرخين أن فتحها كان سنة ثماني عشرة الهجرية (١٥١) (٦٣٩م) ، وذكر قسم منهم أن فتحها كان سنة تسع عشرة الهجرية (١٥٢) (٦٤٠م) ، وأيام من المحرم سنة عشرين الهجرية (١٥٣) .

ان الفتح الاول وهو الفتح الرئيس للجزيرة جرى سنة سبع عشرة الهجرية ، وجرت بعض معارك استثمار الفوز ، وهي معارك تعبوية لتطهير جيوب المقاومة الجزرية سنة ثماني عشرة الهجرية ، أما سنة تسع عشرة الجهرية وسنة عشرين الهجرية فجرت بعض معارك استعادة فتح البلاد الجزرية المنتقضة وفتح بعض المواقع الثانوية في الجزيرة ، واستمرت هذه المعارك الى أوائل سنة عشرين الهجرية (١٥٤) ، فلا تناقض بين المؤرخين في النص على سنة الفتح،

---

(١٤٨) فتوح البلدان (٢٥٠) ، ونص عبارتهم : « أما اذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج ، فانا نرضى ونحفظ ديننا » .
(١٤٩) فتوح البلدان (٢٤٠) .
(١٥٠) الطبري (٣٥/٤) وابن الأثير (٥٢٣/٢) .
(١٥١) فتوح البلدان (٢٣٧) .
(١٥٢) الطبري (٥٣/٤) وابن الأثير (٥٣٣/٢) .
(١٥٣) فتوح البلدان (٢٤٢) .
(١٥٤) فتوح البلدان (٢٤١ ـ ٢٤٢) .

لأن عمليات الفتح الاول كانت سنة سبع عشرة ، وعمليـات التطهير ومقـاتلة المنتقضين جرت سنتي ثماني عشرة الهجرية وتسع عشرة الهجرية وأوائل سنة عشرين الهجريـة .

ولم يبق الروم مكتوفي الايدي بعد خسارتهم الجزيرة ، فكانوا يهاجمون مدنها بين حين وآخر ، حين يجدون القوة فيهم والضعف في المسلمين لتفرقهم ، فاذا عادت الوحدة للمسلمين ، استعادوا فتح المناطق التي خسروها ، وتعرضوا ببلاد الروم الأصلية وضموا أجزاء منها بين حين وآخر الى الدولة الاسلامية .

وقد كان للصوائف نشاط ملحوظ في عهد بني أمية خاصة ، حيث كان لها نشاط كبير في الجزيرة وبلاد الروم أيضا ، مما سنذكره مفصلا في كتاب : قادة فتح بلاد الروم .

ولم يكن نشاط تلك الصوائف فتحا بالمعنى الصحيح ، بل كان استعادة للفتح ، أو للدفاع عن الجزيرة تجاه الروم ، وذلـك بالتعرض ببـلاد الروم والاستيلاء على جزء منها ، واشغال جيش الروم بالدفاع عن بلاد الروم الأصلية عن الطموح في استعادة الجزيرة أو جزء منهـا ، لهـذا آثرت ألا أتطرق الى تفاصيل المعارك ، لانها لاتضيف فتحا جديدا في الجزيرة ، كما خشيت التطويل والتكرار دون مسوغ .

أما فتح تكريت فقد كان على يدي عبدالله بن المعتم العبسي (١٥٥) ، وكان فتح الموصل على يدي ربعي بن الافكل العنزي (١٥٦) . وتناولت هذا الفتح في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة ، وجرى الفتح سنة ست عشرة الهجرية (١٥٧)

(١٥٥) انظر سيرته المفصلة في : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٧٥ ـ ٣٨١) .
(١٥٦) انظر سيرته المفصلة في : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٣ ـ ٣٨٦) .
(١٥٧) الطبري (٤/٥٤) وابن الأثير (٢/٥٣٢) .

(٦٣٧م) ، وقد كان فتح تكريت والموصل من فتوح أهل العراق دون منازع .

أما سائر الجزيرة ، فمن فتوح أهل العراق في رواية ، ومن فتوح أهل الشام في رواية ثانية [١٥٨] ، والذي يبدو أن سعد بن وقاص هو الذي جيّش الجيوش وبعث القادة لفتح الجزيرة كما ذكرنا ، فذهب أهل العراق بفخر فتح الجزيرة الاول سنة سبع عشرة الهجرية ، فكتب أبو عبيدة بن الجراح الذي كان على بلاد الشام الى عمر بن الخطاب يسأله أن يضم اليه عياض بن غنم ، فصرفه اليه [١٥٩] . ومعنى ذلك أنه كان قبل هذا بامرة سعد بن أبي وقاص في أهل العراق ، فصرفه عمر الى أبي عبيدة حسب طلبه بعد فتح الجزيرة الاول.

وصرف عمر بن الخطاب بعد استكمال فتح الجزيرة سُهيل بن عدي وعبدالله بن عتبان الى الكوفة ليصرفهما سعد بن أبي وقاص الى المشرق [١٦٠] ، وهذا دليل على أنهما جاءا من العراق وعادا اليه بعد انجاز واجبهما في الفتح .

وقد أمد عمر بن الخطاب عياض بن غنم بحبيب بن مسلمة ، فقدم على عياض مددا [١٦١] ، وكان رجاله من أهل الشام ، فوجهه عياض الى قرقيسياء ففتحها صلحا على مثل صلح الرقة ، وهذا يدل على أن أهل الشام شاركوا قليلا بفتح الجزيرة الأول .

أما استعادة الفتح في ميدان الجزيرة ، وبخاصة في عهد بني أمية ، فقد كان من حظ أهل الشام ، كما كان استعادة الفتح في هذا الميدان على عهد بني العباس حتى خلافة المعتصم من حظ أهل العراق .

---

(١٥٨) ابن الاثير (٢/٥٣٣ ـ ٥٣٤) .
(١٥٩) الطبري (٤/٥٥) .
(١٦٠) الطبري (٤/٥٥) .
(١٦١) الطبري (٤/٥٥) .

لقد كان فتح الجزيرة الاول عراقيا كله الا قليلا ، وكان استعادة فتحها عراقيا شاميا ، فهو جهاد مشترك ،لتحقيق هدف مشترك .

وأكبر الظن أن المسلمين الفاتحين لم يكن لهم أي نشاط في اقتناص مفاخر الفتوح ، فقد شغلوا بالفتح وأعبائه ، فلم يبق لهم وقت للمراء ، لأن أعمالهم كانت تغني عن الأقوال . ومضى عصر الفتح واستعادة الفتح ، ومضى الفاتحون الى جوار ربهم غير ملومين ، وجاء من بعدهم أعقابهم فورثوا الفتح ومفاخره دون جهد ، فكان المراء بينهم في نسبة مفاخر الفتح الى أقطارهم أو الى بلدانهم أو الى قبائلهم ، اذ لم يترك لهم الفاتحون ما يفعلون ، فلابد لهم من ترديد ما يقولون ، وهكذا اختلفوا في نسبة الفتح الى أجدادهم ، ولكن التاريخ خير من يفصل بالحق في مثل هذا الاختلاف .

أما ما يبدو من تناقض وقع فيه المؤرخون القدامى في توقيت الفتوح وفي أسماء القادة الفاتحين ، فسبب التناقض في التوقيت هو أن قسما منهم يذكرون سنة الفتح الاول ، وقسما منهم يذكرون سنة عمليات استثمار الفوز وهي عمليات تطهير جيوب المقاومة ، وقسما منهم يذكرون سنة أو سني استعادة الفتح بعد انتقاض المنطقة المفتوحة أو استردادها من العدو ، ونتيجة لذلك يتناقضون في أسماء القادة الفاتحين ، لأن الفاتح الاول قد لايقوم بعمليات استثمار الفوز ، وقد يكون الذي يستعيد الفتح قائدا ثالثا ، والمهم بالنسبة للمؤرخين المحدثين هو تتبع مجرى الحوادث وسير العمليات العسكرية في المصادر العربية الاسلامية المعتمدة ، والحذر من المراجع غير المعتمدة وبخاصة الأجنبية منها ، فليس سرا أن بعضها لايخلو من دس مريب وتشكيك متعمد ، والمفروض أن يصحح المؤرخون العرب والمسلمون ذلك الدس والتشكيك ، الذي قد يكون عن جهل أو سوء فهم أو مقصد مشبوه ، لا أن ينقلوه نقلا ، ليسمموا به عقول التلاميذ والطلاب والدارسين والقراء .

عبرة الفتح

كان الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب يتميز بعقلية سَوقية فذة ، كما أثبت ذلك في خططه السَوقية التي وضعها في فتوح العراق والشام والجزيرة ومصر وشمالي افريقية وفارس ، فكان عهد عمر عهدا ذهبيا للفتح الاسلامي العظيم •

وبصفته القائد الاعلى لجيوش المسلمين ، فانه كان يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها ، ويعهد بتنفيذها الى قائد ذي خبرة وأمانة وكفاية ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتمادا على القائد وحده ، اذ ليس القائد مسؤولا وحده عن مصير القوات المقاتلة التي بقيادته •

فاذا رأى القائد العام رأيا وخالفه هو في رأيه ، أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه اليه ، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر واعانته عليه•

انه يضع لقادته الخطط السَوقية ، ويترك لقادته أمر وضع الخطط التعبوية فكان قائدا سَوقيا ، يُعِد الخطط السوقية ، ويصدر أوامره ووصاياه الى قادته العامين وقادته المرؤوسين ، مبينا لهم السياسة العامة للحرب ، ثم يترك لهؤلاء القادة تحمل أعباء كل التفاصيل التنفيذية •

في سنة سبع عشرة الهجرية ، قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بمدينة حمص ، فقد أرسل أهل الجزيرة الى ملك الروم هرقل يحثونه على ارسال الجنود الى الشام ، ويذكرون له أنهم سيعاونونه • وحين علم المسلمون باجتماع الروم وأهل الجزيرة على حربهم ، سحب أبو عبيدة مسالحه المتقدمة من مواضعها وعسكر بفناء مدينة حمص • وأقبل خالد بن

الوليد من قنسرين [١٦٢] اليهم ، فاستشار أبو عبيدة خالدا وغيره من المسلمين في المناجزة أو التحصين الى مجيء الغياث ، فأشار خالد بالمناجزة ، وأشار غيره بالتحصين ومكاتبة عمر ، فأطاع أبو عبيدة الذين رأوا التحصين ، وكتب الى عمر بذلك .

وكان بالكوفة ـ كما ذكرنا ـ أربعة آلاف فرس ، وكان في كل مصر من أمصار المسلمين الثمانية في حينه أفراس على قدره ، فان تأتها آتية ركبها الناس وساروا الى أن يتجهز الناس الآخرون ، فهي الاحتياط العام السيار لجيوش المسلمين المحاربة في الخطوط الأمامية [١٦٣] .

وكان مجمل خطة عمر السَوقية هي : تحريك الاحتياطي العام السيار من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي (فورا) الى حمص لاستنقاذ أبي عبيدة ومن معه من المسلمين المحاصرين فيها من الروم وأهل الجزيرة ، وحماية حمص من القوات المعادية بخاصة وبلاد الشام بعامة . ثم تحريك قوات من المسلمين بقيادة عياض بن غنم لفتح الجزيرة ، لغرض اجبار أهل الجزيرة على الانسحاب من مواضعهم التي تحاصر حمص الى بلادهم الجزيرة للدفاع عنها ، وبذلك يخفف الضغط عن المسلمين المحاصَرين في حمص ، فيصبح أمر الروم المحاصِرين لحمص وحدهم على المسلمين هيّنا .

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على حصار حمص خبرُ الجنود الاسلامية ، تفرقوا الى بلادهم وفارقوا الروم . عند ذاك استشار أبو عبيدة

---

(١٦٢) قنسرين : مدينة تقع في ديار ربيعة ، منها الى حلب مرحلة صغيرة . ومنها الى معرة النعمان مرحلة كبيرة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٦-٢٦٧) ومعجم البلدان (٧/١٦٨) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٧٥) وأحسن التقاسيم (١٥٤) ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (١١١) .

(١٦٣) انظر التفاصيل في الطبري (٤/ ٥٠ ـ ٥١) وابن الأثير (٢/٥٣٠ ـ ٥٣١).

خالدا في الخروج الى الروم ، فخرج اليهم وقاتلهم وانتصر عليهم . وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام ، فكتب أبو عبيدة الى عمر بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك ، فكتب اليه : « أشركوهم ، فانهم نفروا اليكم وانفرق لهم عدوكم » ، وقال : «جزى الله أهل الكوفة خيرا ، يكفون حوزتهم ، ويمدون أهل الأمصار » (١٦٤) .

وأول ما نلاحظه في خطة عمر السَوقية هذه ، أنه كان أعد في مختلف الأمصار خيولا للطوارىء ، تتحرك بانذار قصير الى الأماكن المهددة بالخطر من دار الاسلام . وقد حمى عمر بعض المراعي لتلك الخيول ، فحمى (الربذة)(١٦٥) ـ مثلا ـ لخيول المسلمين (١٦٦) ، وكان عنده خيل موسومة على أفخاذها : حبيس في سبيل الله (١٦٧) ، يحمل عليها المجاهدين ، وتتحرك الى أهدافها المرسومة ، اذ تحرك القعقاع من يومه باتجاه حمص »(١٦٨) .

ونلاحظ ثانيا ، أن عمر أمر بمشاغلة قوات الروم بحمص بعد أن حرم الروم من معاونة أهل الجزيرة الأقوياء الأشداء لهم ، وذلك بمهاجمة أهل الجزيرة في عقر دارهم .

ونلاحظ ثالثا ، أن الامدادات تحركت بسرعة خاطفة من العراق والشام والحجاز الى حمص لضرب الروم وحلفائهم في حمص ، مما جعل التفوق بالعدد الى جانب المسلمين .

---

(١٦٤) الطبري (٥١/٤ ـ ٥٢) وابن الأثير (٥٣١/٢) .
(١٦٥) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة اميال منها على طريق ذات عرق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢١/٤) .
(١٦٦) ابن الأثير (٥٣٠/٢) .
(١٦٧) طبقات ابن سعد (٣٠٦/٣) .
(١٦٨) الطبري (٥١/٤) .

ونلاحظ رابعا ، أن هذه الاجراءات السريعة الحاسمة ، أمنت عنصر المباغتة ، فباغت المسلمون الروم وحلفاءهم ، فانتقلت المبادرة من الروم الى المسلمين ، وأدى ذلك الى ارتباك خطط الروم وحلفائهم والى رفع معنويات المسلمين وتحطيم معنويات أعدائهم ، مما أدى الى انتصار المسلمين وهزيمة الروم .

ان حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد الى هدف بعيد ليس سهلا.. انه يكاد يكون مستحيلا حتى في هذه الايام ، وهذا مايدعو الى الاعجاب بهذا الانجاز العسكري الاسلامي قبل أربعة عشر قرنا خلت من عمر الزمن ، وهو عمر جد طويل ، وهو يدلنا على ما بلغته العسكرية العربية الاسلامية حينذاك من دقة في التنظيم ومتانة في الضبط ، وهذا هو بعض الجواب على تساؤل المؤرخين قديماً وحديثاً : كيف تم الفتح الاسلامي بهذه السرعة التي تم بها ؟ وتوخى مبدأ المباغتة ، ورفع المعنويات ، والاحتفاظ بالمبادأة ، كل ذلك بموجب خطة سوقية تقلب الهزيمة الى نصر ، وتغير الموقف العسكري الى أحسن حال .
وتغير الموقف العسكري الى أحسن حال .

وما كان لمثل هذه الخطة السوقية العمرية أن يكتب لها النجاح ، لو لم يكن عمر قد أعد الاحتياط العام السيار في الأمصار الاسلامية على امتداد دار الاسلام ، وأعد لها القادة المناسبين للواجبات المناسبة .

والعبرة هنا ، في أهمية وجود الاحتياط العام السيار القادر ، بقيادة قادرة متميزة ، لمعالجة الأمور الطارئة التي ليست في الحسبان .

والقائد الذي ليست لديه قوات احتياطية ، يجازف بمستقبله قائدا ، وبمصير جيشه وأمته ، ويقود رجاله الى الهزيمة .

والعبرة التالية هي ، حرص عمر بن الخطاب على بقاء العرب في مواطنهم

وتحاشي الهجرة منها الى الروم ، لأن العرب مادة الاسلام ، والمحافظة عليهم وحشدهم في بلادهم قوة للاسلام والمسلمين •

وحتى في حالة اختلاف عرب الجزيرة عن العرب الفاتحين في العقيدة ، فقد كانوا أقرب الى العرب المسلمين القادمين من صحراء جزيرة العرب وحواضرها من الروم •

وكمثال على ذلك في فتح مدينة تكريت ، فقد حصر عبدالله بن المعتم الروم وحلفاءهم أربعين يوما ، وتزاحفوا أربعة وعشرين زحفا • وأرسل عبدالله ابن المعتم الى العرب الذين كانوا مع الروم يدعوهم الى نصرته ، وكانوا لايخفون عليه شيئا • ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم ، تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم الى السفن ، فأرسلت تغلب واياد والنمر الى عبدالله بالخبر ، وسألوه الأمان ، وأعلموه أنهم معه ، فأرسل اليهم : «ان كنتم صادقين فأسلموا»، فأجابوه وأسلموا ، فأرسل اليهم عبدالله : « اذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا أخذنا أبواب الخندق ، فخذوا الأبواب التي تلي دجلة واقتلوا من قدرتم عليه»•

ونهد عبدالله والمسلمون وكبروا ، وكبرت تغلب والنمر واياد وأخذوا الأبواب ، فظن الروم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلي دجلة ، فقصدوا الأبواب التي عليها المسلمون ، فأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف العرب الذين أسلموا تلك الليلة ، فلم يفلت من الخندق الا من أسلم من تغلب واياد والنمر (١٦٩) •

وقد ضعف الصدقة على عرب الجزيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ورضى جميعهم الصدقة بدل الجزاء استرضاء للعرب واستمالة للنازحين منهم

---

(١٦٩) الطبري (٣٥/٤ ــ ٣٦) وابن الأثير (٥٢٣/٢ ــ ٥٢٤) .

الى بلاد الروم للعودة الى الجزيرة ، ولم يتساهل عمر هذا التساهل مع غير عرب الجزيرة .

وهذا مايدل على حرص عمر بن الخطاب على العنصر العربي ، وبذله ما استطاع لابقائهم وتوطنهم : «فصالحهم المسلمون ، ودفعت الارض اليهم ، ولم تسب نساؤهم ولا أولادهم» (١٧٠) .

ومن دراسة سير عمليات فتح الجزيرة ابتداءً من السبب المباشر لفتحها وهو حصار حمص من الروم ومن حلفائهم أهل الجزيرة ، وانتهاءً بالسبب غير المباشر لفتحها ، نجد أن أهل الجزيرة لم يقاتلوا كما ينبغي : في الثبات مع الروم في حصار حمص ، وفي الدفاع عن الجزيرة دفاعاً مشرفاً ، اذ انسحبوا من حصار حمص بسرعة الى بلادهم ، وخلفوا الروم وحدهم في حصار حمص ، كما لم يقاتلوا بضراوة دفاعاً عن بلادهم ، « فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً، وأيسره فتحاً ، فكانت تلك السهولة مهجنة عليهم »(١٧١) .

فما هو تعليل هذا التهاون في الثبات وفي الدفاع ؟!

لقد كان أهل الجزيرة ، وأكثرهم من العرب ، أشداء أقوياء ، وكان بمقدورهم الثبات بشكل أفضل مما فعلوا والدفاع أحسن مما قاتلوا ، وبخاصة وأن أكثر مناطق الجزيرة صالحة للدفاع المديد الموفق . ويبدو أن تعليل تهاونهم في الثبات مع الروم في حصار حمص وفي الدفاع عن بلادهم هو ، أن الجزيرة كانت تحت حكم الروم ولم يكونوا مستقلين ، والمستعبد لا يقاتل كما يقاتل المستقل ، لأن الأول يقاتل لمصلحة مستعبِده ، والثاني يقاتل لمصلحة بلاده ، وشتان بين القتالين وكما أن أهل الجزيرة كانوا محكومين من الروم ،

(١٧٠) فتوح البلدان (٢٤٣) .
(١٧١) الطبري (٤/٥٤) .

ولن يخسروا شيئاً اذا اصبحوا محكومين من العرب المسلمين ، بل ان العرب المسلمين أقرب اليهم من الروم ، لأن غالبية أهل الجزيرة من العرب ، كما أن المسلمين أرحم من الروم وأكثر عدلاً ، وقد كان معظم أهل الجزيرة من النصارى وكان الروم من النصارى أيضاً ، ولكن المسلمين أكثر تسامحاً من نصارى الروم الأرثدوكس مع نصارى أهل الجزيرة الذين كان ثمانون بالمئة منهم من النساطرة وعشرون بالمئة منهم من اليعاقبة ، وكان معظم عرب الجزيرة من النساطرة ، والعداوة بين الأرثدوكس والنساطرة واليعاقبة معروفة ، وكان للعداوة المذهبية أثر في اضمحلال الروم كما هو معروف (١٧٢) ، وكان المسلمون أكثر تسامحاً مع طوائف النصارى من الدولة الرومانية الشرقية (١٧٣) .

وبقدر شعور المسلمين الايجابي الذي تمثل في حرصهم الشديد على الاحتفاظ بالعنصر العربي في الجزيرة وعدم نزوح العرب من الجزيرة الى بلاد الروم ، فقد كان شعور عرب الجزيرة سلبياً تجاه المسلمين ، فما قاتل عربُ الجزيرة مع المسلمين الروم في أيام الفتح ، ولا كان لهم تأثير ايجابي في الفتح، وكل ادعاء يخالف ذلك لا سند له تاريخياً ، فقد استثار أهل الجزيرة الروم وكانوا معهم في حصار حمص ، وكانوا مع الروم في فتح تكريت والموصل وقرقيسياء ورأس عين وغيرها من المدن الجزرية ، فلما تبين لهم أن الروم لا يستطيعون مقاومة المسلمين الفاتحين ، تخلوا عن الروم وانحازوا الى الفاتحين، فكان أهل الجزيرة بعامة مع القوي دائماً على الضعيف ، ولم يعاون المسلمين

(١٧٢) أصبح الانقسام الديني في زمن هرقل شديداً ، الامبراطور ومن معه يقول بطبيعتين ومشيئتين ، واليعاقبة حزب آخر ، والنساطرة حزب ثالث ، مع احزاب دينية أخرى ، وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، انظر : تاريخ التمدن الاسلامي (١/٤٢) ـ الطبعة الأولى .

(١٧٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (١/٥٥) ـ آدم متز .

الفاتحين غير العرب الذين أسلموا من أهل الجزيرة ، وعاونهم غير العرب ايضاً من الذين أسلموا ، أما الذين لم يسلموا من أهل الجزيرة ، فكانت قلوبهم مع المسلمين الفاتحين وسيوفهم مع الغالب على المغلوب •

وبعد فتح الجزيرة ، أصبح أهل الجزيرة غير المسلمين ، يتمتعون بقسط عظيم من الحرية والاستقلال ، فكان لهم شأن آخر في الدفاع عن بلادهم ، غير شأنهم في الدفاع عنها أيام الروم ، والا لماذا لم يدافع اهل الجزيرة عن بلادهم قبل الفتح ، ودافعوا عنها دفاع الابطال بعد الفتح !!

والعبرة هي أن الاحرار المستقلين يدافعون عن بلادهم كما يدافع الرجال، أما العبيد المستعبدون فلا يقاتلون •

والعبرة الرئيسة والأخيرة ، هي أن فتح الجزيرة دليل" مادي قاطع ، على أن الفاتحين لم يكرهوا أحداً من غير المسلمين على اعتناق الاسلام ، فبقى النصارى الذين حفظوا دينهم من العرب وغير العرب على دينهم ، يمارسون طقوسهم الدينية علناً بحرية كاملة ، ولايزال أحفادهم منذ كان الفتح حتى اليوم على دينهم الذي ارتضوه لأنفسهم ، يعيشون جنباً الى جنب مع المسلمين في المدن والقرى والارياف الجزرية ، في حماية الاسلام والمسلمين مع كنائسهم وأديرتهم ، لا يمسهم مسلم حق بسوء ما داموا يحفظون عهودهم ومواثيقهم التي عقدوها وأبرموها مع المسلمين الفاتحين •

والادعاء بان الاسلام انتشر بالسيف ادعاء متهافت ، زوره الذين في قلوبهم مرض من الحاقدين على العرب والمسلمين ، وردده الأعداء والجاهلون بتعاليم الاسلام السمحة وبالتاريخ الاسلامي العريق •

واذا كان الاسلام قد انتشر بالسيف ، فكيف بقى غير المسلمين في قرى الجزيرة ومدنها وارياقها على دينهم بعد الفتح وحتى اليوم ؟! ألم يكن بامكان

الفاتحين أن يحملوا غير المسلمين من أهل الجزيرة على الاسلام ؟ أكان باستطاعة أهل الجزيرة بعد الفتح البقاء على نصرانيتهم لو أن المسلمين أرادوهم على الاسلام ؟! ولماذا بقي قسم من أهل الجزيرة على دينهم الاول وأسلم قسم منهم مع من أسلم ، اذا لم يكن الخيار بيد أهل الجزيرة وهم أحرار في اختيار العقيدة التي يعتنقون ؟!

ولا يحتاج الاعاء بأن الاسلام انتشر بالسيف الى نقضه ، لأن (الواقع) يدحضه ، وبقاء النصارى وحتى يهود من أهل الجزيرة وبلاد الشام ومصر وبلاد الروم على دينهم بعد الفتح الاسلامي وحتى اليوم ، خير دليل على تهافت هذا الادعاء .

ولكن لا بأس من ذكر تعاليم الاسلام في الذميين والقتال بايجاز شديد، لأن الحق أبلج ، والباطل زاهق ، ولا بقاء لباطلٍ يدحضه الواقع الملموس وحقائق التاريخ والفقه الاسلامي العظيم .

ان الذمة في اللغة : الأمان والعهد ، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى ويهود وغيرهم ممن يقيم في دار الاسلام[١٧٤] . وقد جاء في الحديث الشريف ... « ويسعى بذمتهم أدناهم .... » ، وفسّر الفقهاء (ذمتهم) بمعنى الأمان[١٧٥] ، ويؤيد ذلك ما قالوه في تفسير عقد الذمة بأنه اقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة[١٧٦] . وعلى ذلك يمكن القول بأن عقد الذمة عقد يصير بمقتضاه غير المسلم في ذمة المسلمين ،

(١٧٤) القاموس المحيط (١١٥/٤) وشرح السير الكبير (١٦٨/١) ، فالمراد بالذمة العهد موقتاً كان او مؤبداً .

(١٧٥) كشاف القناع (٧٠٤/١) .

(١٧٦) كشاف القناع (٧٠٤/١) وكشف المخدرات (٢٥٦) .

أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد ، وله الاقامة في دار الاسلام على وجه الدوام [١٧٧] .

وقد شرع عقد الذمة بعد فتح مكة ، ويؤيد هذا أن آية الجزية المتضمنة عقد الذمة وهي قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية ...) [١٧٨] .

وهذه الآية الكريمة نزلت في السنة التاسعة الهجرية أي بعد فتح مكة [١٧٩] .

أما حكمة مشروعية عقد الذمة ، فهي أن يترك المقاتل غير المسلم القتال، مع احتمال دخوله في الاسلام على طريق مخالطته للمسلمين واطلاعه على شرائع الاسلام ، وليس المقصود من عقد الذمة الحصول على المال [١٨٠] .

وعقد الذمة عقد لازم في حق المسلمين ، فلا يملكون نقضه مالم يظهر من الذمي ما يقتضي نقضه . وأما في حق الذمي ، فهو عقد غير لازم ، اذ يحتمل النقض من جهته [١٨١] .

---

(١٧٧) احكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام (٢٢) .

(١٧٨) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٢٩) ، انظر تفسير هذه الآية الكريمة في الكشاف للزمخشري (٢/٢٩ ـ ٣٠) وتفسير ابن كثير (٤/١٤٤ ـ ١٤٥) وتفسير البغوي في هامش تفسير ابن كثير (٤/١٤٣ ـ ١٤٥) والبيضاوي (٣/٦٥) .

(١٧٩) احكام القرآن للجصاص (١/١٤٢) .

(١٨٠) المبسوط (١٠/٧٧) والكاساني (٧/١١١) ونيل الأوطار للشوكاني (٨/٥٨) وشرح السير الكبير (٣/٢٥٤) : « لأنا انما قبلنا منهم عقد الذمة ليقفوا على محاسن الدين ، فعسى أن يؤمنوا » .

(١٨١) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام (٤٢) .

وحقوق الذميين على المسلمين : « لهم مالنا ، وعليهم ما علينا » ، وقد قال الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « انما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا » (١٨٢) ، ومن شرح السير الكبير : « ولأنهم قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم (١٨٣) » ، ويعلل بعض الفقهاء ، مساواة الذمى للمسلم في بعض التكاليف المالية ، بأن الذمى بعقد الذمة صار له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين(١٨٤) . ومن هذا يتضح، أن الذميين ـ كقاعدة عامة ، كالمسلمين في الحقوق والواجبات (١٨٥) .

وكان من حق الذميين التمتع بالحقوق السياسية ، كتولي الوظائف العامة عدا الخلافة (١٨٦) أي الامامة ، والامارة على الجهاد (١٨٧) ، فمن البديهي أن يكون رئيس الدولة الاسلامية مسلماً ، وأن يكون أمير المجاهدين مسلماً لأن الجهاد يلتزم به المسلم دون الذمى ، وان كان للذميين أن يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن دار الاسلام ويلتزموا هذا الواجب (١٨٨) .

وفيما عدا الوظائف القليلة التي يشترط فيمن يتولاها أن يكون مسلماً ، يجوز اشتراك الذميين في تحمل أعباء الدولة واسناد الوظائف العامة اليهم ، وقد دل على هذا الكتاب العزيز والسنة المطهرة . ففي الكتاب العزيز قولـه تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانــة من دونكم لا يألونكم خبالا

---

(١٨٢) الكاساني (١١١/٧) ، وسنن الدار قطني (٣٥٠/٢) : «من كانت له ذمتنا، فدمه كدمنا » .

(١٨٣) شرح السير الكبير للسرخسي (٢٥٠/٣) .

(١٨٤) الكاساني (٣٧/٢) .

(١٨٥) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام (٧١) .

(١٨٦) ارشاد الى قواطع أدلة في اصول الاعتقاد (٤٢٧) ، ومتن المنهاج ومغنى المحتاج (١٢٩/٤ ـ ١٣٠) .

(١٨٧) الاحكام السلطانية للماوردي (٣٣) والاحكام السلطانية لأبى يعلى (٣) .

(١٨٨) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام (٧٨) .

ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) [١٨٩] • وقد نزلت هذه الآية فيمن كان لهم ذمة وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٩٠] ، وهي لم تنه المسلمين من اتخاذ بطانة منهم بصورة مطلقة ، وانما قيدت النهى بالقيود الواردة فيها ،)ي أن النهى منصب" على من ظهرت عداوتهم للمسلمين ، فهؤلاء لايجوز اتخاذهم بطانة • ومعنى هذا ان الذميين الذين لا تعرف لهم عداوة للدولة الاسلامية ، يجوز للمسلمين اتخاذهم بطانة يستودعونهم الأسرار ويستعينون برأيهم في شئون الدولة [١٩١] • ومعنى هذا أيضاً جواز اسناد الوظائف العامة اليهم التي هي دون البطانة في المركز والأهمية •

وفي السيرة النبوية ما يؤيد قولنا ، من ذلك بصدد غزوة بدر الكبرى بين المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم وبين مشركي مكة ، فقد أسر المسلمون في هذه الغزوة سبعين أسيراً ، وكان من هؤلاء من لا مال له ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الانصار الكتابة ، بأن يعلّم الواحد منهم عشرة من غلمان الانصار ويُخلى سبيله [١٩٢] ، فهذا الأثر يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدم غير المسلمين في شأن من شئون الدولة الاسلامية ، وهو تعليم بعض المسلمين الكتابة • وفي السيرة النبوية أيضا ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توجه الى مكة سنة ست الهجرية ، ووصل الى مكان يدعى (ذى الحليفة) [١٩٣] ، بعث عينا منه من خزاعة يخبره

(١٨٩) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١١٨) •
(١٩٠) تفسير الطبري (٤/٦٣ — ٦٤) •
(١٩١) تفسير المنار (٤/٨١) •
(١٩٢) امتاع الاسماع للمقريزي (١/٣٩ ، ٤١) •
(١٩٣) زاد المعاد لابن القيم (٤/٢٠٢) •

عن قريش [١٩٤] ، وكان هذا العين كافرا [١٩٥] ، ومع هذا اسند النبي صلى الله عليه وسلم اليه هذه المهمة الخطيرة . ولاشك في أن النبي صلى الله عليه وسلم أمنه ووثق به واطمأن اليه ، مما يدل على جواز اسناد وظائف الدولة العامة الى الذميين ما داموا أهلا لها من حيث الكفاية والثقة والأمانة .

فالكتاب والسنة اذا ، يدلان على جواز اسناد الوظائف العامة الى الذمى مادام ثقة ذا كفاية ، وهذا في الحقيقة أقصى مايمكن من التسامح والتساهل مع المخالفين في الدين لا نجد له نظيرا في القديم والحديث . وفي ظل هذا التسامح الاسلامي الكريم ، صرح فقهاء الشريعة الاسلامية بجواز تقليد الذمى وزارة التنفيذ [١٩٦] ، ووزير التنفيذ يبلغ أوامر الامام ويقوم بتنفيذها ويمضي مايصدر عنه من أحكام [١٩٧] ، كما نص الفقهاء على جواز اسناد وظائف أخرى الى الذميين كجباية الجزية والخراج [١٩٨] .

واذا تجاوزنا أقوال الفقهاء الى واقع الدول الاسلامية ، نجد ان المسلمين في مختلف العصور يشركون أهل الذمة في أعمال الدولة . فعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءه سبى قيسارية جعل بعضهم في الكتابة وأعمال المسلمين [١٩٩] . وسليمان بن عبدالملك الخليفة الأموي عهد بالاشراف والنفقة على بنائه مسجد الجماعة ببلدة الرملة الفلسطينية الى كاتب نصراني يقال له : البطريق ابن النكا [٢٠٠] .

---

(١٩٤) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة باتجاه مكة ، ومنها ميقات أهل المدينة ، انظر معجم البلدان (٣٢٩/٣) .
(١٩٥) زاد المعاد (٣١٢/٤) .
(١٩٦) الاحكام السلطانية للماوردي (٢٤ ــ ٢٥) .
(١٩٧) الاحكام السلطانية للماوردي (٢٥) .
(١٩٨) الاحكام السلطانية للماوردي (١٢٦) والاحكام السلطانية لأبى يعلي (١٢٤).
(١٩٩) فتوح البلدان (١٩٣) .
(٢٠٠) فتوح البلدان (١٩٥) .

ولما فتح المسلمون مصر أبقوا العمال البيزنطيين ، وكان من هؤلاء شخص يدعى : ميناس ، كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من مصر • ومن الاشخاص المعروفين : أثناسيوس ، الذي شغل بعض مناصب الحكومة بمصر في زمن الأمويين ، حتى بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الاسكندرية ، وهكذا كانت عادة الأمويين في تعيين النصارى في وظائف الدولة ، وقلما خلا منهم ديوان من دواوينها ، حتى كان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون • وفي زمن العباسيين ، عين الخليفة أبو جعفر المنصور يهوديا اسمه : موسى ، كان أحد اثنين في جباية الخراج • وعين المأمون أحد وجهاء : (بورة) [٢٠١] اسمه : بكام ، رئيسا لبلدته واقليمها • وقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة ، منهم نصر بن هارون سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة الهجرية وعيسى بن نسطورس النصراني سنة ثمانين وثلاثمائة الهجرية [٢٠٢] •

وقد جاء في كتاب : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز : « ولم يكن التشريع الاسلامي ما يُغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الاعمال ، وكان قدمهم راسخا في الصنائع التي تدر عليهم الارباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء » [٢٠٣] • « أما حياة الذمي عند أبي حنيفة وابن حنبل ، فانها تكافىء حياة المسلم ، وديته دية المسلم ، وهي مسألة مهمة جدا من حيث المبدأ • أما عند مالك فدية اليهودي

---

(٢٠١) بورة : مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط ، انظر معجم البلدان (٣٠٢/٢) •

(٢٠٢) أهل الذمة في الاسلام ــ ا. س. ترتون ــ ترجمة حسن حبشي ــ طبعة سنة ١٩٤٩ ــ ص (١٦٩) •

(٢٠٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٢) نقلا من كتاب : الخراج لقدامة بن جعفر (٢٠٩) ــ ليدن ــ ١٨٨٩م •

أو النصراني نصف دية المسلم ، وعند الشافعي ثلثها »[٢٠٤] . «ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم »[٢٠٥] . « على أن الكنيسة الرسمية للدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهب اليه الاسلام بالنسبة لأهل الذمة ، فلما أعاد الامبراطور نقفور افتتاح جزء من بلاد الشام في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ كان مما وعد به أهل الشام وأمنهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدولة ، ولكنه رغم هذا الامان لم يأل جهدا في مضايقة اليعقوبيين ، فاضطرهم مثلا الى الخروج من أنطاكية ، لذلك نجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون البطارقة الذين عينتهم الدولة في انطاكية بأنهم أضل من فرعون وأشد كفرا من بختنصر . ولما أعيد احتلال ملطية أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعة من كبار أساقفتهم الى القسطنطينية وسجنوا هناك ، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى في ملطية ، فأما البطريرك فانه مات منفيا على حدود بلغاريا ، وكذلك مات أحد أصحابه في السجن ، ورجم الثالث أمام قصر الامبراطور ، ورجع ثلاثة منهم عن المذهب اليعقوبي وأعيد تعميدهم ، ولكنهم لم يجدوا السكينة التي يرجونها ، وصاروا موضع السخرية كأنهم شياطين . وأخيرا لم يستطع رؤساء الكنيسة السريانية أن يقيموا في مقر بطريقهم بعد دخول المذهب الملكاني ـ وبعد أن أعيدت أنطاكية الى المسيحية كما يقول الملكانيون ـ فاضطروا الى الانتقال الى آمد طلبا لتسامح أكثر في بلاد المسلمين . ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى ارمينية من

---

(٢٠٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٣) .
(٢٠٥) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٤) .

استعمال النواقيس [٢٠٦] ، وكثيرا ماكان رجال السلطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات ، حتى عين حاكم أنطاكية في القرن الثالث الهجري رجلا يتقاضى ثلاثين دينارا من النصارى في الشهر ، وكان مقره قرب المذبح ، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضا [٢٠٧] » . «وكان أهل الذمة يعاملون في مستشفيات بغداد معاملة المسلمين » [٢٠٨] . « ولما كان الشرع الاسلامي خاصا بالمسلمين ، فقد خلت الدولة الاسلامية بين أهل الملل الاخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم ، أنها كانت محاكم كنسية ، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون مقام كبار القضاة أيضا ، وقد كتبوا كثيرا من كتب القانون . ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج ، بل كانت تشمل الى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به » [٢٠٩] .

ولكثرة اسناد الوظائف العامة الى الذميين في الدولة الاسلامية ، وشيوع هذا الأمر ، قال آدم متز أحد مؤرخي الغرب : « من الامور التي نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية »[٢١٠] .

والدولة العثمانية ، وهي الدولة الاسلامية المتأخرة ، جرت على ما جرت

(٢٠٦) وهكذا فعلت الكنيسة الانكليزية مع الكاثوليك حتى القرن التاسع عشر ، وكما لاتزال اسبانيا وصقلية تفعلان حتى اليوم مع البروتستانت .
(٢٠٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٥) .
(٢٠٨) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٧)
(٢٠٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (٥٨) ، انظر التفاصيل في هذا الكتاب (٤٤ ــ ٧٦) .
(٢١٠) كتاب : الاسلام انطلاق لا جمود ــ الدكتور مصطفى الرافعي ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ ١٩٥٩ ــ ص (١٦) ، وانظر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ــ آدم متز ــ ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة (١/٦٧) .

عليه الدول الاسلامية الاخرى وزادت عليه ، فكانت تسند الوظائف المختلفة الى رعاياها من غير المسلمين ، وجعلت أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى (٢١١) •

ومن هذا العرض الذي قدمناه ، يتضح لنا بجلاء أن اختلاف الذميين مع المسلمين في العقيدة ، لم يقم حائلا دون اشراكهم في ادارة شئون الدولة وتكليفهم بوظائفها ، وهذا يدل على مدى تسامح الاسلام والمسلمين معهم •

وتظهر هذه الحقيقة بجلاء اذا ذكرنا أن الدولة الاسلامية دولة عقيدية قامت على أساس الاسلام ولغرض تنفيذ أحكامه تنفيذا كاملا سليما في الداخل، والسعي الى نشره بكل وسيلة مشروعة في الخارج ، لأن الاسلام دعوة عالمية لا اقليمية • ودولة هذا شأنها لايكون مستغربا أن يتولى شئونها المؤمنون بعقيدتها ونظامها وغايتها ، بل لايكون مستغربا ألا يتولى شئونها غير المؤمنين بعقيدتها ، من شئونها العامة ما داموا لايؤمنون بما تؤمن به من عقيدة وغاية ونظام ولو حملوا جنسيتها • ولكن مع هذا نجد دولة الاسلام بتوجيه من الاسلام تتسع لغير المسلمين وتسنح صدرها لهم ولاتضيق بهم ، بل تشركهم في أعباء الدولة والمساهمة في ادارة شئونها ، وهي تعلم أنهم يخالفونها في عقيدتها وغايتها ، وهذا أقصى ما يمكن من التسامح والثقة بالمخالف في العقيدة والدول العقيدية حتى في القرن الحاضر ، كالدول الشيوعية مثلا ، لاتعهد بشئون الدولة ووظائفها العامة الى غير الشيوعيين وان كانوا من رعاياها ، وحتى لو أقرت لهم بالمساواة في الحقوق السياسية مع غيرهم من المواطنين ، فانها عملا وواقعا لا تسمح لمن لا يدين بالشيوعية أن يتولى الوظائف العامة ، وأقصى مايمكن أن يطمح اليه غير الشيوعيين هو العيش بسلام وأمان لايمسهم

(٢١١) تفسير المنار (٤/٨٤) .

أذى من دولتهم [٢١٢] .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين: (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديـاركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذيـن قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) [٢١٣] .

واقرأ الآية الكريمة ، وهي من أواخر آيات القرآن نزولا ، فهي تحـدد أيضا علاقة المسلمين بغيرهم : (اليوم أحلّ لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم ، وطعامكم حلّ لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجـورهن محصنـين غـير مسافحين ولا متخذي أخدان ، ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) [٢١٤] .

من ذلك يُفهم أن علاقة المسلمين بغـير المسـلمين هي : بر ، وقسط ، وتعاون ، ومصاهرة ، ولايمكن أن تكون العلاقة بين أصحاب عقيدة بغيرهم الذين على غير عقيدهم بمثل هذه القوة والرسوخ .

تلك هي مجمل تعاليم الاسلام في أصحاب الذمة ، أما تعاليم الاسلام في القتال ، فيمكن أن تلخص في ثلاث كلمات : الاسلام ، أو الجزيـة ، أو القتـال .

لما نزل خالد بن الدليد الحيرة ، خرج اليه أشرافها مع اياس بن قبيصـة

(٢١٢) أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام (٨٢ ـ ٨٣) .
(٢١٣) الآيتان الكريمتان من سورة الممتحنة (٦٠ : ٨ ـ ٩) .
(٢١٤) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٥) .

الطائي (٢١٥) ، وكان أمّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر ، فقال له خالد ولأصحابه : «أدعوكم الى الله والى الاسلام ، فان أجبتم اليه فأنتم من المسلمين، لكم مالهم وعليكم ما عليهم ، فان أبيتم فالجزية ، فان أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم » ، فقال اياس بن قبيصة : « ما لنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية»(٢١٦) .

ولما دخل وفد سعد بن أبي وقاص على كسرى قبيل معركة القادسية ، قال النعمان بن مقرن المزني (٢١٧) ـ وكان على الوفد ـ مخاطبا كسرى : « ان الله رحمنا ، فأرسل الينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة... ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم ، فندعوهم الى الانصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله ، فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزاء ، فان أبيتم فالمناجزة . فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، والا قاتلناكم »(٢١٨) .

واذا استقصينا كلام قادة الفتح كافة في مفاوضاتهم أهل البلاد الذين يريدون فتحها قبل الاقدام على القتال ، لوجدناه يتلخص في ثلاث كلمات : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال .

وليس عجيبا أن يتفق كل القادة الفاتحين في كل البلاد المفتوحة ، على

---

(٢١٥) الخراج لأبي يوسف (١٧) .
(٢١٦) الطبري (٣/٣٤٤) .
(٢١٧) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح بلاد فارس (٩٧ ـ ١٠٧) .
(٢١٨) الطبري (٣/٤٩٨ ـ ٤٩٩) وابن الأثير (٢/٤٥٦ ـ ٤٥٧)

هذه الكلمات الثلاثة ، لأن هذه الكلمات هي روح تعاليم الاسلام في القتال ، اذ تقضي هذه التعاليم ، بأنه اذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم ــ أولا ــ أن يدعوا أهله الى الدخول في الاسلام ، فان أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء ، وان لم يسلموا دعوهم الى أن يسلّموا بلادهم للمسلمين ويحكمونها ، ويبقوا على دينهم ان شاؤوا ويدفعوا الجزية ، فان قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم، وان لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية ، أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا »(٢١٩) .

تلك هي المبادىء التي تسيطر على تعاليم الاسلام في القتال : الاسلام ــ الجزية ــ القتال .

وليس هناك بين تلك المبادىء الاكراه على اعتناق الاسلام ، فاذا مادفعوا الجزية أقاموا على دينهم : « ... بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية »(٢٢٠) ، كما قال أهل الحيرة لخالد بن الوليد ، وأضعف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصدقة على نصارى بني تغلب عوضا عن الجزية ، فقالوا : « أما اذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج ، فانا نرضى ونحفظ ديننا »(٢٢١) ، وبنو تغلب من نصارى الجزيرة . وقد بقي على دينهم سائر أهل الكتاب في سائر البلاد المفتوحة من الذين لم يُسلموا وأعطوا الجزية للمسلمين الفاتحين ، فلم يكرههم المسلمون الفاتحون على الاسلام ، تطبيقا لتعاليم الاسلام في القتال ولتعاليمه التي نصت عليها الآية الكريمة : (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرُشد من

(٢١٩) انظر فجر الاسلام (١٠٩) ــ احمد امين ــ الطبعة الثالثة .
(٢٢٠) الطبري (٣/٣٤٤) .
(٢٢١) فتوح البلدان (٢٥٠) .

الغَيّ) [٢٢٢] •

ان الادعاء بأن المسلمين الفاتحين نشروا الاسلام بالسيف بعيد عن الواقع والحق والصواب •

فالواقع ، يثبت أن أحفاد غير المسلمين الذين لم يُسلموا وأعطوا الجزية ، بقوا على دينهم ومارسوه بحرية ، ولا يزال أحفادهم يعيشون في بلاد المسلمين بعد الفتح وحتى اليوم •

والحق ، يثبت أن النصوص التاريخية المعتمدة ، تشهد أن المسلمين الفاتحين دعوا أهل البلاد المفتوحة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلوهم بالتي هي أحسن ، فاستجاب لهم من استجاب ، وبقى من بقى على دينه من أهل الكتاب بعد دفع الجزية للمسلمين الفاتحين مقابل الدفاع عنهم ، والذي دافع عن بلاده منهم مع المسلمين وضعت عنه الجزية وسقطت عنه[٢٢٣]، فقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يُبعث جابيا •

والصواب ، يثبت أن الاكراه في الدين ليس من الاسلام في شيء ، وأن المسلمين لايكرهون أحدا على الاسلام ، والعالم الاسلامي اليوم وقبل اليوم مكون من قسمين : البلاد المفتوحة ، والبلاد غير المفتوحة ، وتعداد المسلمين في البلاد غير المفتوحة أكثر من تعدادهم في البلاد المفتوحة ، فاذا صح أن المسلمين الفاتحين حملوا غير المسلمين على الاسلام في البلاد التي فتحوها بالسيف ، فمن حمل غير المسلمين في البلاد التي لم تفتح على الاسلام ؟ !

من نشر الاسلام في الهند والصين وأندونوسيا وماليزيا والفلبين وفي

(٢٢٢) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢/٢٥٦) ، وانظر تفسيرها في : تفسير ابن كثير (٢/١٥ ــ ١٦) والبغوي (٢/١٦ ــ ١٧) وفي ظلال القرآن (٣/ ٢٩ ــ ٣٠) .

(٢٢٣) انظر التفاصيل في : قادة فتح العراق والجزيرة (٥٢٥ ــ ٥٣٢) .

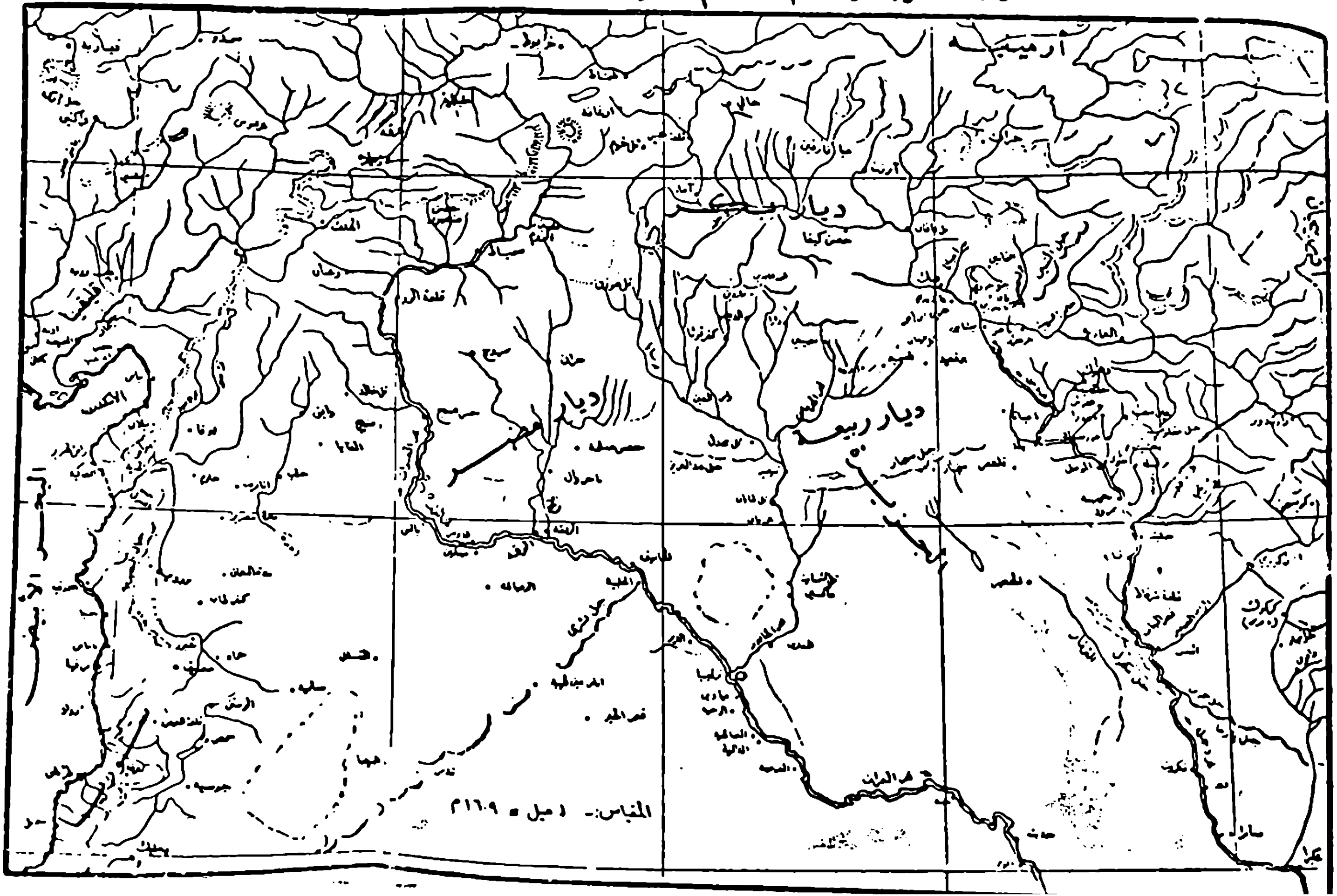
مجاهل افريقية وفي أوروبا وأمريكا ، وهي بلاد لم يصل اليهـا المسلمـون الفاتحون ؟ !

لقد كان الجهاد حربا عادلة ، واتسم الحكم الاسلامي بالعدل والانصاف والحرية ، وحمل المسلمون المبادىء الاسلامية لغة وتشريعا وعقيدة ومثلا علياً في يد ، وحملوا السيف وأسلحة النصر في يـد أخرى ، لذلـك كان الفتح الاسلامي فتحا مستداما منذ كان حتى اليوم ، وسيبقى حتى يرث الله الارض ومن عليها ، خلافا لانتصارات من كان قبلهم ومن جاء بعدهم ، لان انتصارات المسلمين الفاتحين انتصارات مبادىء بالدرجة الاولى لا انتصارات سيوف •

ان المسلمين الفاتحين حملوا الاسلام الى البلاد المفتوحة بالفتح ، ولكنهم لم يحملوا أهل تلك البلاد على الاسلام بالفتح •

* * *

خارطة الجزيرة والشام وأقاليم العواصم والثغور



الفهرس

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي